شخصية دعبل الخزاعي من خلال التناقضات

الدكتور
يحيى معروف
جامعة رازي كرمانشاه ـ جمهورية إيران الإسلامية

شخصية دعبل الخزاعي من خلال التناقضات

الدكتور
يحيى معروف
جامعة رازي كرمانشاه ـ جمهورية إيران الإسلامية

المقدمة:

الذين دافعوا عن آل بيت نبينا المختار ﷺ كانوا أكثر الناس عرضةً لأنواع المخاطر كالقتل والتعذيب وتلطيخ السُمعة مثلما ورد في أمهات المصادر العربية التي تتهم هؤلاء الشعراء بلؤم الطبع، والبخل، ودناءة النفس رغم ذلك احتفظت نفس المصادر ولو بقدر يسير، من صفاتهم السامية، وهذا القدر على قلّته يكفي للتدليل على صحة ما ذهب إليه الباحث.

الدراسات السابقة في هذا المجال:

هناك كتب ومقالات عدة تلقي الضوء على بعض الزوايا من حياة دعبل الخزاعي ولكن لم نعثر على بحث شامل ينفي مزاعم المؤرخين في التهم الموجهة إلى هذا الشاعر الملتزم الذي قدم النفس والنفيس في الدفاع عن عقيدته السامية.

لاشك أنه قلّما نجد شاعرا أو كاتباً شيعياً دافَعَ عن النبىّ ﷺ وآل بيته الأبرار إلا ونجد أنواع التهم تخيم عليه نحو: (كان فاسداً)، (كان فاسقاً)، (كان رافضيّاً)، (كان كثير التعصب والغلو)، (كان ظالماً)، (كان أحمق)، (كان بخيلاً)، (كان كذوباً) وهكذا دواليك. وبالرجوع إلى تراجم هؤلاء الذين رُموا بالفسق والخيانة والحماقة والخروج عن الدين وغير ذلك، نجد من بين هؤلاء فريقاً كان معروفاً لدى الرواة بالصدق والوفاء والالتزام بالتقوى وجودة الشعر. ويظهر من أخبارهم أن هؤلاء الشعراء لم يستطيعوا أن يتأقلموا مع حياة الظلم والاضطهاد، ومضوا يعيشون الحياة كأحرار غير مبالين بسلوك الطغاة والجبابرة وأوامرهم ونواهيهم.

منهجنا في هذا البحث هو الكشف عن حقيقة أحد الشعراء الملتزمين من خلال أقوال المؤرخين في نصوصهم التأريخية. ثم المقارنة بين أقوالهم ليتبين للقارىء المنصف نياتهم حتى

يصل إلى الاستنتاج المنطقي والرأي السليم. فالبحث يعرض جانبا من جوانب السلوك الاجتماعي، لدى دِعْبِل بن عليّ الخُزاعِي (الشهيد ٢٤٦سنة هـ.ق) الذي دافع عن آل بيت النبي ﷺ بنفسه ونفيسه.

يحاول الباحث عرض التُّهم التي ألصقت به. ويظل القصد من ذلك هو إلقاء المزيد من الضوء على تلك الانتقادات التي تناقلها الرواة في هذا الشأن. فالدراسة هذه لاتسعى إلى إثبات التهم التي تناقلها الرواة عن دعبل أو رفعها عنه، بل هي إلمامة إخبارية قُصد من حصرها وإيرادها عرضها وإخضاعها للدراسة من خلال الموازنة بينها وبين ما نسب إليه. هنا نلقي الضوء على حياة شاعرنا الفذّ:

ولد دعبل في الكوفة سنة ١٤٨هـ، (وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٧٠ ؛ تاريخ بغداد، ج٨، ص٣٨١) ونشأ فيها. والمعروف أن هذه المدينة كانت تتصف بولاء معظم أبنائها لآل البيت عليهم السلام وقد عاصر تسعة من خلفاء العباسيين هم: المنصور{بدأت خلافته سنة ١٣٦هـ} والمهدي، والهادي، والرشيد، والأمين، والمامون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل {انقضت خلافته سنة ٢٤٧ هـ.} فهو ينتمي في نسبه إلى قبيلة خزاعة المعروفة بولائها العريق للإسلام ولرسول اللّه ﷺ، ولأهل بيته عليهم السلام فعبد اللّه بن بديل بن ورقاء، الجد الأكبر لدعبل، كان هو وأخوه عبد الرحمن رسولَي النبي ﷺ إلى اليمن. وكانا وشقيقهم عثمان من فرسان جيش الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام في صفين. قال أبو الفرج الأصبهاني: (الأغاني، ج٢٠، ص١٣٢) ((كان دعبل من الشيعة المشهورين بالميل إلى عليّ صلوات الله عليه)) فترعرع في أسرة موالية لأهل البيت، وعلى الرغم من كل الصور المشوهة التي نسجها بعض المؤرخين حول شخصيته، لم يستطع أحد أن يطعن في عقيدته أو يتهمه بالانحراف عن ولائه لأهل البيت. فشعره يعكس وجهة نظره العقائدية في فهم التشيع. هنا نكتفي بما قاله ياقوت الحموي: (معجم الأدباء، ج٤، ص١٩٦) ((قصيدته التائية في أهل البيت من أحسن الشعر، وأسنى المدائح قصد بها علي بن موسى الرضا عليه السلام بخراسان)).

والآن نصل إلى تهم الرواة دعبلَ وما قيل عنه في المصادر العربية فلنبدأ بكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (٤٨٤-٣٦٢هـ): هذا الكتاب من أهم ما وصل إلينا من كتب التراث العربي، واعتمد عليه معظم المؤلفين بعده، فكان أهم مصدر من مصادر تأليفهم في الأدب والنقد والتاريخ والحضارة العربية بكافة جوانبها وعصورها منذ الجاهلية وحتى عصر

مؤلفه. عبَّر عنه ابن خلدون (مقدمة ابن خلدون، ص١٠٧٠) بقوله: وقد حصلت لهذا الكتاب شهرة واسعة جداً، منذ أن ظهر للناس أواسط القرن الرابع للهجرة ووصلت شهرته إلى الأندلس سريعاً، "فبعث الحكم المستنصر إلى مؤلفه ألف دينار عيناً ذهباً، وخاطبه يلتمس منه نسخة. فبعث إليه منه نسخة حسنة منقحة (الحلة السيراء، ابن الأبار الأندلسي، ج١، ص٣٠١) كما بعث بنسخة أخرى إلى سيف الدولة الحمداني أمير حلب ((فأنفذ إليه ألف دينار)) (مختار الأغاني، ابن منظور، ج ١، ص١). رغم هذه الشهرة الواسعة نقده الكثيرون فذكروا مواضع الخَلل والاضِطراب والتناقض فيه. (راجع: مجلة التراث العربي،٣٤، مواطِن الخَلل والاضِطراب في كتاب الأغاني).

التهمة الأولى:

ذكر ابوالفرج بعد أن نسب إليه أوصافاً ممتازة كـ((شاعر متقدم مطبوع)) (الأغاني، ج٢٠، ص١٣١) ثم تابع القول فقال: ((هجَّاءٌ خبيثُ اللِّسان!!، لم يسلم عليه أحدٌ من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم)) وقال الخطيب البغدادي: (تاريخ بغداد، ج٨، ص٢٤٦) ((وكان خبيثَ اللسِّان قبيحَ الهجاء))!! وقال ابن خلكان (٦٠٨ - ٦٨١هـ) في وفيات الأعيان (ج٢، ص٢٢٧): ((كان شاعرا مجيدا إلا أنه كان بذي اللسان مولعاً بالهجو والحطّ من أقدار الناس)) وقال أبو إسحاق القيرواني الحصري (ت٤١٣هـ) (زهر الآداب، ج١، ص٨٦): ((كان دعبل مداحاً لأهل البيت عليهم السلام كثير التعصب لهم والغلو فيهم)).

وجوابه هو: أن في سيرة دعبل ملامحَ من العزم والقوة والاستمرار على المبدأ فدعبل يختلف عن شعراء عصره الذين أكثروا شعر المديح في الحكّام العباسيين، فهو كان يعبر بصراحة وصدق عما يراه ويشاهده من أحداث عاشها وعانَى منها الكثير، وكان يوجّه النقد الصريح للحاكمين دون خوف أو وجل، ممّا لوّن شعره بطابع الهجاء ولهذا أصبح محلاً للتجريح من قِبل البعض. لأنه كان شديد الموالاة لآل البيت عليهم السلام، متجاهراً في ذلك، متعرضاً بالهجاء لكل من يناوؤهم. وقد تحمَّل في سبيل ذلك كثيراً من المتاعب، واضطر إلى عبور الصحاري والفلوات هرباً ممن هجاهم من الخلفاء. قيل له: لماذا تهجو من تخشى سطوته؟ قال: (الأغاني، ج٢٠، ص١٣٣؛ وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٢٧) ((أنا أحمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة، فلست أجد أحداً يصلبني عليها)).

وأما أسباب هجاءه المقذع للخلفاء الذين عاصرهم يعني هارون الرشيد، محمد الامين،

المامون، المعتصم، والمتوكل ووزراء هؤلاء الخلفاء، دون أدنى شك هذا دليل جرأته وإقدامه على هجاء من يستحق الهجاء، ولو أدَّى ذلك إلى الصَّلب. فلم يكن هجاؤه للخلفاء والحاكمين عندئذ إلا بدافع العقيدة وموالاة أهل البيت عليهم السلام. لأن الولاية لاتكون خالصة الا بالبراءة ممن يضادها ويعاندها، كما تبرأ اللّهُ ورسولُه من المشركين. وأما كلام أبي إسحاق القيرواني الذي ادعى أنه ((كثير التعصب لهم والغلو فيهم)) ليس إلا مجرد ادعاء لأنه لم يأت بنموذج ليثبت ادعاءه. فهذه الأقوال وما شابهها أُطلقت على الكثيرين من موالي آل البيت عليهم السلام على مرِّ العصور.

التهمة الثانية:

ذكر ابوالفرج سبب خروجه عن الكوفة قائلاً: (الأغاني، ج٢٠، ص١٣٦) ((عن أبي خالد الخزاعي: كان سبب خروج دعبل بن عليّ من الكوفة أنه كان يتشطَّر ويصحب الشُّطار {كان هذا الاسم يطلق على أهل البطالة والفساد في أيام الدولة العباسية}، فخرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعتمة، فجلسا على طريق رجل من الصيارفة {مفردها الصيرفيّ: الذى يبدل النقود}، وكان يروح كل ليلة بكيسه إلى منزله، فلمّا طلع مقبلاً إليهما وثبا إليه فجرحاه، وأخذا ما في كُمِّه، فاذا هي ثلاث رمانات في خرقه، ولم يكن كيسه ليلتئذٍ معه، ومات الرجل مكانَه، واستتر دعبلُ وصاحبُه، وجدَّ أوليا الرجل في طلبهما، وجدَّ السلطان في ذلك، فطال على دعبل الاستتار، فاضطر إلى أن هرب من الكوفة. قال أبو خالد: فما دخلها حتى كتبتُ اليه أعلمه أنه لم يبقَ من أولياء الرجل أحدٌ))!!

وقد نسي ابوالفرج ما نقلها في الصفحات السابقة من كتابه فذكرها مرة أخرى بشكل آخر فيه تناقض عجيب في كيفية قتل الصيرفيّ حيث قال: (الأغاني، ج٢٠، ص١٤٥) ((....عن أبي خالد الأسلمي كان يتشاطر بالكوفه وهرب منها بعد ما قَتَلَ صيرفياً: أخبرني الحسن بن على قال حدثنا ابن مهرويه قال حدثني ابن الأعرابى عن أبى خالد الأسلمى قال: كان دعبل بن علي الخزاعي بالكوفه يتشطر وهو شاب،.... وكان يصلت على الناس بالليل فقَتَلَ رجلاً صيرفياً، وظن أن كيسه معه، فوجد في كمه رماناً فهرب من الكوفة)).

وجوابه هو: أننا نتوقع من القارىء المنصف ليقارن بين ما قاله أبو الفرج نقلاً عن رجل باسم ((أبي خالد الأسلمي)) فهو تارة يقول ((وثبا اليه فجرحاه، وأخذا ما في كُمِّه.....

ومات الرجل مكانَه)) ثم يقول ((فقَتَلَ رجلاً صيرفياً)) لو فرضنا أن هذا الخبر صحيحاً فهل مات هذا الرجل طبيعياً كما يموت الإنسان في بيته أو في الطريق؟ أم قَتَلَه دعبل؟! فأيُّ قول من الاقوال يعتبر صحيحاً؟ لأنه كما ذكر الأصبهاني: مرة هجم عليه الرجلان فمات الرجل مكانَه إثر جرح طفيف!! ومرة أخرى ينسى ما قاله سابقاً فيقول: ((قَتَلَ صيرفياً)) بنفسه! فهل كان دعبل شريكاً في الموت أو قتله بنفسه للوصول إلى كيسه؟!!

مما لا شك فيه أن مصدر الروايات التي قيلت في دعبل كلها واحدة وهو ((أبو خالد الأسلمي))، والظن أن طابع الوضع عليها واضح بقصد تلطيخ سمعته. وكما يظهر عن كلام ((أبي خالد)) انه كان شديد التعصب على دعبل بل يمكننا نعتبره من ألد خصامه فمن الطبيعي أن يسعى وراء هذه الأكاذيب. فخير مثال على هذا هو ما ورد في الأمثال الفارسية حيث يقال: ((إن الكذَّاب تقلُّ ذاكرتُه)). والآن نلفت انتباهكم إلى ما قاله أبو الفرج عن حضور الشاعر لدى الامام الرضا عليه السلام وبكاء الإمام إلى درجة الإغماء وإعطائه عشرة آلاف درهم وحليّ كثير وثوباً من ثيابه وانه كيف امتنع عن بيع الثياب مقابل دفع مبالغ باهظة من قبل أهالي مدينة قم المقدسة. فهل يعقل للانسان اللبيب أن يخطر بباله أن دعبل هجم على صيرفيّ طمعاً لسرقة أمواله؟!!

قال أبوالفرج (الأغاني، ج٢٠، ص١٦٢؛ وقد ذكرها أيضاً في ص١٣٢، فضلاً عن ذلك ورد في: تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ج١٧، ص٢٦٢) ((...قال {دعبل}: دخلت على عليّ بن موسى الرضا عليه السلام فقال لي: أنشدني شيئاً مما أحدثتَ، فأنشدتُه:

((مَدارسُ آياتٍ خَلَتْ مِنْ تلاوَةٍ وَمنزلُ وحيٍ مُقْفِرُ العَرَصَاتِ))

حتى انتهيتُ الى قولي:

إذا وُتِرُوا مَدُّوا إلى واتريهم أَكُفّاً عنِ الأوتارِ منقبضات

قال: فبكى حتى أُغْمِي عليه، وأومأ الى خادم كان على رأسه: أن أسكت، فسكتُّ ساعةً، ثم قال لي: أَعِدْ، فأعدتُ حتى انتهيت إلى هذا البيت أيضاً، فأصابه مثل الذي أصابه في المرة الأولى، وأومأ الخادم إليَّ: أن اسكت، فسكتُ، فمكث ساعة أخرى ثم قال لي: أعد، فأعدت حتى انتهيت إلى آخرها، فقال لي: أحسنت، ثلاث مرات، ثم أمر لي بعشرة آلاف درهم مما ضُرِبَ باسمه، ولم تكن دُفِعَتْ إلى أحد بعدُ، وأمر إلى مَنْ في منزله بحليّ

كثير أخرجه إليّ الخادم، فقدمتُ العراق، فبعتُ كلَّ درهم منها بعشرة دراهم، اشتراها مني الشيعة، فحصل لي مائة ألف درهم، فكان أول مال اعتقدته. يستوهب الرضا عليه السلام ثوباً لبسه ليجعله في أكفانه: قال ابن مهرويه وحدثني حذيفة بن محمد: أن دعبلاً قال له: انه استوهب من الرضا عليه السلام ثوبا قد لبسه في أكفانه فخلع جبة كانت عليه، فأعطاه إياها وبلغ أهل قم خبرها فسألوه أن يبيعهم إياها بثلاثين ألف درهم، فلم يفعل، فخرجوا عليه في طريقه، فأخذوها منه غصباً، وقالوا له: إن شئت أن تأخذ المال فافعل، وإلا فأنت أعلم. فقال لهم: انى والله لا أعطيكم إياها طوعاً، ولا تنفعكم غصباً، وأشكوكم إلى الرضا عليه السلام. فصالحوه على أن أعطوه الثلاثين الألف الدرهم وفَرْدَ كُمٍّ من بطانتها فرضى بذلك)).

التهمة الثالثة:

٣- قال أبوالفرج: (الأغاني، ج٢٠، ص١٤٩) ((كان دعبل يخرج فيغيب سنين، يدور الدنيا كلها، ويرجع وقد أفاد وأثرى. وكانت الشراة {الخوارج} والصعاليك يلقونه فلا يؤذونه، ويؤاكلونه ويشاربونه ويبرونه، وكان إذ لقيهم وضع طعامه وشرابه، ودعاهم إليه،... وسقاهم وشرب معهم، وأنشدهم، فكانوا قد عرفوه، وألفوه لكثرة أسفاره، وكانوا يواصلونه ويصلونه)).

وجوابه هو: أن غيابه عن الناس وتجواله هنا وهناك فراراً من حكام الجور أو لكسب لقمة العيش فهو أمر طبيعي لأنه كان يلتقي لدى جولته بالخوارج واللصوص فهم كانوا يزورونه ولايصيبونه أذى فهم يؤاكلونه ويشاربونه وهو أيضاً عندما كان يبسط مائدته يستدعيهم لتناول الطعام معه. هذا إن لم يكن حسناً فليس بعيب لأنه يدل على سجاياه الأخلاقية بعبارة أخرى جذب إليه حتى اللصوص والخوارج رغم الاختلاف بينهم في الأفكار والاعتقادات.

التهمة الرابعة:

قال أبوالفرج: (الأغاني، ج٢٠، ص١٣٧) ((... عن أبي خالد الخزاعي قائلاً قلت لدعبل: ويحك قد هجوتَ الخلفاء والوزراء والقوادَ ووَترْتَ الناس جميعاً {أصبح لهم عندك وتر؛ والوتر: الثأر}، فأنتَ دهرَكَ كلَّهُ شريد طريد هارب خائف، فلو كففتَ عن هذا وصرفتَ هذا الشَّرَّ عن نفسك! فقال: ويحكَ؟ إني تأملتُ ما تقول، فوجدتُ أكثر الناس لا يُنْتَفَعُ بهم إلا عَلَى الرَّهْبَةِ، ولا يُبالَى بالشَّاعرِ وإِنْ كانَ مُجِيداً إذا لَمْ يُخَفْ شَرُّهُ، ولَمَنْ

يَتَّقيكَ عَلَى عِرْضِه أَكْثَرُ ممَّنْ يَرْغَبُ إليك فى تشريفِه. وعُيوبُ النَّاسِ أكثرُ مِنْ محاسِنِهِمْ، وليس كلُّ مَنْ شَرَّفْتَهُ شَرُفَ، ولا كل من وصفتَهُ بالجود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقول، فاذا رآكَ قد أَوْجَعْتَ عِرْضَ غيره وفضحتَهُ اتَّقَاكَ عَلَى نَفْسِه وخافَ مِنْ مِثْلِ ما جَرَى على الآخر. وَيْحَك، يا أبا خالد إن الهجاءَ الُمقذع آخذٌ بِضبعِ الشاعر مِنَ المديحِ الُمضْرِعِ. فَضَحِكْتُ مِنْ قولِه، وقلتُ: هذا والله مقالُ مَنْ لايموتُ حَتْفَ أَنْفِه)).

وجوابه هو: أن كلام ((أبي خالد الخزاعي)) أشبه بحكاية مضحكة لأن الذي يسير وراء المنافع المادية لايُلْقي بنفسه إلى التهلكة عن طريق هجو الملوك والخلفاء والوزراء لكسب الثروة فهو لو كان مادياً لمدح الممدوحين فلم يهج أحداً هجواً مقذعاً. وإذا كان يقصد من وراء هجوه اكتساب المال لم يقل: ((أنا أحمل خشبتي على كتفي منذ خمسين سنة، لست أجدُ أحداً يصلبني عليها)) (الأغاني، ج٢٠، ص١٣٣) إنه كان يعلم أن هجو الظالمين والمستكبرين لأجل الدين يؤدي إلى استشهاده رغم ذلك لم يخف منهم مادام حياً. فضلاً عن ذلك إذا كان غرضه كسب المال لكان بمقدوره أن يضع لسانه في سوق الارتزاق كما فعل غيره، ولو فعل ذلك لفاق أقرانه وجمع أموالاً هائلة لايمكن حصرها، ولكنه أبى إلاّ أن يضحّي بالغالي والنفيس من أجل عقيدة كان يناصرها ضميره، وليس هناك مجال للتظاهر بالتشيع ما دام التشيّع محارَباً من قبل الحكومة العباسية. هو كان يعرف جيداً أن من يتكلم عن مناقب الوصي يُقطع لسانه ويُمزق ديوانه. فلذلك ألزم أئمة الشيعة التقية على شيعتهم حفظاً على دمائهم التي استحلها أولئك المجرمون الذين خلقوا للجريمة والإساءة إلى الناس، ولولا التقية لما بقي للشيعة اسم ولا رسم. لقد شدد الأئمة الطاهرون على شيعتهم بكتمان إيمانهم وإخفاء عقيدتهم حفظا لدمائهم وإبقاءً على وجودهم.

التهمة الخامسة:

والجواب من دعبل نفسه:

قال أبوالفرج (الأغانى، ج٢٠، ص١٩٦) ((يُتَّهم دعبل بشتم بنت عبد المطلب عليها السلام فيهرب وينكر التهمة: أخبرني الحسن بن عليّ قال: حدثنا ابن مهرويه قال: حدثني أبي قال: قَدِمَ دعبلُ الدينورَ، فجرَى بينه وبين رجل من ولد الزبير بن العوام كلامٌ وعربدةٌ على النبيذِ، فاستعدى على عمرو بن حميد القاضي، وقال: شتمَ {دعبل} بنتَ عبد المطلب، واجتمع عليه الغوغاء، فهرب دعبل، وبعث القاضي إلى دار دعبل فوكل بها وختم بابه،

فوجَّهَ إليه برُقْعَةٍ فيها: ما رأيتُ قطُّ أجهلَ منك إلا مَن وَلَّاك، فأنه أجهلُ، يقضي في العربدة على النبيذ، ويحكم على خصم غايب، ويقبل عقلك أني رافضي شتم صفية بنت عبد المطلب. سخنت عينك، أفمن دين الرافضة شتم صفية؟ قال أبي: فسألني الزبيري القاضي عن هذا الحديث فحدثته، فقال: صدق والله دعبل في قوله، لو كنت مكانه لوصلته وبررته. هذه القضية وما شابهتها جعلته يفر من الناس حيث قال شهاب الدين أحمد، المعروف بابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد (ج٢، ص٢٨٩): ((وقيل لدعبل الشاعر: ما الوَحْشة عندك؟ قال: النَّظرُ إلى الناسِ!!)).

التهمة السادسة:

ذكر أبو بكر أحمد بن عليّ الخطيب البغدادي (ت٤٦٣) في كتابه تاريخ بغداد (ج٨، ص٢٤٥) ((أنبأنا أبو علي محمد بن الحسين بن محمد الجازري حدثنا المعافي بن زكريا حدثنا محمد بن يحيى الصولي حدثنا محمد بن موسى بن حماد قال سمعت علي بن الجهم وقد ذَكَر دعبلاً فكفَّرَهُ ولَعَنَهُ وقال كان قد أغري بالطعن على أبي تمام وهو خير منه ديناً وشعراً...)).

وجوابه هو: عندما ينظر المنصف إلى تكفير عليّ بن الجهم ولعنه لدعبل يخطر بباله مظلومية هذا الشاعر الملتزم فإنه بمجرد أن طعن على أبي تمام أصبح كافراً وملحداً حيث يستحق التكفير واللعن مع أننا نجد الكثيرين من الشعراء طعنوا الآخرين فلايوصف أحدهم بهذه الصفات؛ فضلاً عن ذلك لم يكن أبو تمام معصوماً عن الذنوب كي لا يقدر أحد أن ينقده.

التهمة السابعة:

إساءة دعبل إلى من أحسن إليه. قال عنه أبوالفرج: (الأغاني، ج٢٠، ص١٣١) ((لم يسلم عليه أحدٌ من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم ولا ذو نباهة، أحسن إليه أو لم يحسن، ولا أفلتَ منه كبيرُ أحدٍ)).

وقال أيضاً (الأغاني، ج٢٠، ص١٩٥) ((كتب {المأمون} إلى أبي أن يكاتبه {دعبل} بالأمان، ويحمل إليه مالاً. وإن شاء أن يقيم عنده أو يصير إلى حيث شاء فليفعل. فكتب إليه أبي بذلك، وكان واثقاً به، فصار إليه، فحمله وخلع عليه، وأجازه وأعطاه المال، وأشار عليه بقصد المأمون ففعل. فلما دخل وسلَّم عليه تبسم في وجهه، ثم قال أنشدني:

مـــدارس آيـــات خلـــت مـــن تـــلاوةٍ ومـــنزل وحـــي مقفـــر العرصـــات

فجزع، فقال له: لك الأمان لاتخف، وقد رويتها ولكني أحب سماعها من فيك، فأنشده إياها إلى آخرها والمأمون يبكي حتى أخضل لحيته بدمعه، فوالله ما شعرنا به إلا وقد شاعت له أبيات يهجو بها المأمون بعد إحسانه إليه وأنسه به..)).

وجوابه هو: انه لم يكن قليل الوفاء، ولم يضلّه المال كما أضلَّ غيره من قبل، وحين هجا أولئك الذين أكرموه وأحسنوا إليه كالرشيد والمأمون مثلاً، فلأنه كان يفهم جيداً أن ذلك ليس إحساناً قبل أن يكون وسيلة لشراء الضمائر والتسلط على ألسنة الشعراء. فهجاؤه لمناوئي أهل البيت لم يكن بدافع شخصي أو مادي قط، وإنما كان بدافع العقيدة الذي يملي عليه ذلك، بغضّ النظر عن سوء النتائج أو حسنها، وقد أصرّ على ما هو عليه دون أن يتردّد أو يقلّ من عزمه حدّ. إنه كان يعرف جيدا أن المأمون يتظاهر بالتشيع فخير دليل على ذلك هو استشهاد الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام بأمر منه فبديهي أن لا يأبه دعبل بعطاياه ولايهمه إحسانه. ولذلك نجد في هجاءه للمامون هدنة ولعل من أحد أسباب تلك الهدنة موضوع ولاية العهد التي قبلها الإمام الرضا عليه السلام، وسبب آخر من أسباب تلك الهدنة ما تظاهر به المامون من حب آل البيت عليهم السلام والعطف على أشياعهم ومحبيهم. فبدا واضحا لذوي البصائر النافذة أن ما فعله المامون لم يكن إلا سياسة مرحلية لدعم جبهته في صراعه المحموم على الحكم سياسياً وعسكرياً مع أخيه الأمين. لأن المنافقين من الشعراء كانوا يحرّضون المأمونَ على دعبل، ولكن المأمون كان يفهم جيداً ما يجب أن يتخذه لتثبيت مركزه وحاكميّته، فكيف يقتل شاعراً معروفاً بولائه لأهل بيت الرسول صلى الله عليه وآله، وعلى مرأى من الناس، لذا أعطى لدعبل الأمان رغم أنه هجا المأمون بقوله: (وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٦٧؛ تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، ج١٧، ص٢٦٣؛ المستطرف في كل فن مستظرف تأليف شهاب الدين أحمد الأبشيهي ج٢، ص٣).

إني مِـــنَ القـــوم الـــذين ســـيوفهم قتلـــتْ أخـــاكَ وشـــرَّفَتْكَ بمقعـــد

شـــادوا بـــذكرك بعـــد طـــول خمولـــهِ واســـتنقذوك مـــن الحضـــيض الأوهـــد

أشار دعبل في هذه الأبيات إلى قضية طاهر بن الحسين الخزاعي وحصاره بغداد وقتله الأمين محمد بن الرشيد وبذلك ولي المأمون الخلافة والقصة مشهورة ودعبل خزاعي فهو

منهم وكان المأمون إذا أنشد هذه الأبيات يقول: (وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٦٧) ((قَبَّحَ اللهُ دعبلاً فما أوقَحَهُ كيف يقولُ عني هذا وقد وُلِدْتُ في حجر الخلافة ورضعتُ ثديها وربيتُ في مهدها)). ولكن لما مات المأمون خلفه أخوه أبو إسحاق محمد المعتصم سنة ٢١٨هـ، فطاردَ الطالبيينَ ونَكَّلَ بهم وكان دعبل يرى في المعتصم خصماً عنيداً وعدواً لا يمكن تركه، فأكثر به الانتقاد اللاذع والهجاء. وكان يطلبه دائماً ليفتك به ويتخلص من لسانه فوضع عليه الجواسيس وعندما بلغ دعبل أن المعتصم يريد قتله هرب. فهو لايرى شرعية الخلافة في المامون أو المعتصم، بل كان يحصرها في أهل بيت النبي ﷺ. فلذلك نلاحظ أنه يتخذ أشعاره سلاحاً في عقاب الحكّام العباسيين لإظهار مساوئهم ومعايبهم وحقائقهم التي يخفونها وراء أقنعتهم كما قال في قبر الإمام الرضا عليه السلام وإلى جواره قبر هارون الرشيد الذي انمحى أثره واندرس: (الأغاني، ج٢٠، ص١٩٤؛ تاريخ دمشق، ابن عساكر، ج٥، ص٢٣٣؛ أخبار شعراء الشيعة، المرزبانيّ، ص٩٤).

أربِعْ بطوسٍ على القبر الزكيّ إذا ... ما كنتَ ثُربع من دينٍ على وطَرِ

قبران في طوس: خير الناسِ كلِّهِمُ ... وقبر شرِّهُمُ. هذا مِن العِبَرِ

ما ينفعُ الرجسَ من قُربِ الزكيِّ ولا ... على الزَّكيِّ بقُربِ الرِّجْسِ مِن ضررِ

وقال في خلفاء بني العباس مصوّراً ما هم عليه من مطاردة لأهل البيت عليهم السلام وتعذيب ونهب وتقتيل: (نفس المصادر)

قتلٌ وأسرٌ وتحريقٌ ومنهبةٌ ... فعلَ الغُزاةِ بأرضِ الرومِ والخَزَرِ

أرى أميّةَ معذورين إن قَتَلُوا ... ولا أرى لبني العباس من عُذُرِ

فهو يعذر بني أمية في أفعالهم حيال بني هاشم لأنهم يبغضونهم ويخالفونهم في الدين والسياسة، ولكنه لا يرى لبني العباس من عذر فقد ناصرهم العلويون في قيام دولتهم ونجاح ثورتهم، وكانوا يحقدون على بني أمية لتقتيلهم آل البيت وما قاموا إلاّ لأخذ الثأر الذي رفعوه شعاراً ولكنهم فاقوا ما فعله الأمويون.

قيل للوزير محمد بن عبد الملك الزيات: لم لا تجيب دعبلا عن قصيدته التي هجاك فيها؟! ((قال: إن دعبلاً جعل خشبته على عنقه يدور بها يطلب من يصلبه بها منذ خمسين سنة وهو لايبالي)). (طبقات الشعراء، ابن المعتز، ص١٢٥).

لاشك أن دعبل كان يهجو العباسيين ويفشي سلوكهم السيىء تجاه الناس. فهو يصف ((خلفاء))!! بني العباس بملوك بني العباس. حيث ذكر أبوالفرج: (الأغاني، ج ٢٠، ص١٥٧؛ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، ج٨، ص٣٧٩) ((كان المعتصم {محمد بن هارون ثامن الملوك العباسيين الحكم سنة ٢١٨ هـ} يبغض دعبلاً لطول لسانه، وبلغ دعبلاً أنه يريد اغتياله وقتله، فهرب إلى الجبل، وقال يهجوه: (الأغاني، ج ٢٠، ص١٥٨)

وَقــامَ إمــامٌ لم يَكُــنْ ذا هِدايــةٍ ... فلــيسَ لــه دِيــنٌ ولــيس لَــهُ لُــبٌ

مُلـوكُ بـني العبـاسِ في الكُتْـبِ سَـبْعَةٌ ... ولَــمْ تَأْتِنَــا عَــنْ ثــامِنٍ لَهُــم كُتْــبُ

كذلكَ أهلُ الكَهْفِ في الكَهْفِ سَبْعَةٌ ... خِيــارٌ إذا عُــدُّوا وثــامِنُهُمْ كَلْــبُ))

وإني لأعلــي كلبــهم عنــك رفعــة ... لأنــك ذو ذنــب ولــيس لــه ذنــب

فكان دعبل نفسه في صميم المعارضين لخلافته وحكمه، ولا سيما مع تصاعد كره المعتصم لشيعة آل البيت عليهم السلام ومحبيهم، ولم يكن دعبل ليسكت عن كل هذا الحيف الذي ألحقه المعتصم بالمسلمين الشيعة. مرة أخرى يهجو المعتصم والواثق {الواثق باللّه هارون بن محمد المعتصم هو تاسع الملوك العباسيين، حكم لخمس سنين، تمتد من ٢٢٧ حتى ٢٣٢ هـ} حين علم نعي المعتصم: (الأغاني، ج٢٠، ص١٦٠) ((... كنت مع دعبل بالصيمرة وقد جاء نعي المعتصم وقيام الواثق، فقال لي دعبل: أمعك شيء تكتب فيه؟ فقلت: نعم، وأخرجت قرطاسا، فأملى على بدئها:

الحمــد للّه لا صــبرٌ ولا جلــدٌ ... ولا عــزاء اذا أهــل الــبلا رَقَــدُوا

خليفــةٌ مــاتَ لم يَحْــزَنْ لَــهُ أَحَــدٌ ... وآخَــرُ قــامَ لَــمْ يَفْــرَحْ بِــهِ أَحــدٌ

فمَــرَّ هــذا ومَــرَّ الشــؤمُ يتبعُــهُ ... وقــام هــذا فقــام الظلــمُ والنكــدُ

استشهاده:

كما مرَّ سابقاً كان العبّاسيّون أشدّ كرهاً للعلويّين من الأمويّين وأعظم بغضاً، فأمعنوا فيهم قتلاً وحرقاً، واضطهاداً وتعذيباً. فمن ذكر عليّاً سُجن أو نُهب ماله أو هُدمت داره، وكان البلاء يشتدّ على العلويّين يوماً بعد يوم. فمن دفن الناس أحياء إلي الصلب إلى الحرق إلى الحبس ومنع الهواء والأكل والماء عن المحبوس، حتى يقضي نحبه جوعاً وعطشاً.

(راجع: محمّد السيّد الكيلاني، أثر التشيّع في الأدب العربيّ، ص ٢٢) فقُتل أنصار عليّ عليه السلام في كلّ قطر وكلّ مصر وعُذّبوا تعذيباً مرّاً، قطعت منهم الأيدي والأرجل. فلم يستثن شاعرنا عن مؤامراتهم فهو بعد ما هجا مالك بن طوق هرب إلى البصرة فبعث مالك بن طوق رجلاً حصيفاً مقداماً، وأعطاه سماً وأمره أن يغتاله كيف يشاء، وأعطاه على ذلك عشرة آلاف درهم، فلم يزل يطلبه حتى وجده في قرية من نواحي السوس، فاغتاله بعد صلاة العشاء، فضرب ظَهْرَ قدمه بعكازٍ مسمومٍ فمات من غد، ودفن بتلك القرية. وقيل بل حمل إلى السوس، فدفن فيها. (تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر ج ١٧، ص ٢٧٧ ؛ الأغانى، ج٢٠،ص٢٠٠) وأما ترديد ابن عساكر في تاريخه (ج ٥، ص ٢٤٢) بعد ذكر وفاة دعبل سنة ٢٤٦هـ وقوله: (قيل: إنه هجا المعتصم فقتله. وقيل: إنه هجا مالك فأرسل إليه من سمه بالسوس) ترديد بلا تأمل، إذ المعتصم توفي سنة ٢٢٧هـ قبل شهادة دعبل بتسع عشرة سنة .كما أن ما ذكره الحموي في (معجم البلدان،ج ٤، ص٤١٨) من (أن دعبلاً لما هجا المعتصم أهدر دمه فهرب إلى طوس واستجار بقبر الرشيد فلم يجره المعتصم وقتله صبراً في سنة ٢٢٠هـ) خلاف ما اتفق عليه المؤرخون وعلماء الرجال من شهادته سنة ٢٤٦هـ (وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٧٠؛ تاريخ بغداد، ج٨، ص٣٨١).

النتائج:

١- في تلك النماذج التي عرضناها ما يمكن اعتباره شاهداً على تعصب المؤرخين. ومع الرغم محاولة بعض مؤرخي الأدب العربي وبتحريض من (السلطان) لطَمْسِ معالم شخصية هذا الشاعر وآثاره وشعره، فلقد حفظ لنا المنصفون من المؤرخين والباحثين شذرات من كلمات نظمها شعرا، فبقيت خالدة حتى يومنا هذا، تشير إلى الحق والخير والفضيلة.

٢- تبين لنا من سيرة شاعرنا أنه مطبوع على الخير، يغلب على أشعاره الهجاء لحكام الجور. واشتهر بالهجاء في عصر كان يعتبر فيه الهجاء جريمة يعاقب عليها فاعلها. فهذا النزر اليسير من شعره الذي وصل إلينا عن طريق هذه المصادر فيه دلالة على أن روح التقوى والصدق ظلت تسيطر على تصرفاته.

٣- كان دعبل شيعياً، وكان تشيعه معتدلاً معقولاً، لا غلوّ فيه ولا إسراف. فامتاز عن شعراء عصره بأنه كان جريئاً غاية الجرأة، وكان إذا ضرب لا يتهاون في ذلك، وإذا

هجا فلا يهمه أن يكون هجاؤه في خليفة أو غير خليفة وما ذلك إلاّ لصدق نيّته وشجاعته وإيمانه وصلابة عزيمته.

٤- في القليل من الشواهد التي عرضنا لها من أخباره وأشعاره ما يكفي للتدليل على حبه للإسلام وأهله. لأنه كان يتناول في شعره حق أهل البيت الذين كان يؤمن بحقهم الصريح، وهجاؤه للحكّام العباسيين يُثبت بكل صدق ووضوح تلك الطاقة وتلك القوة الكامنة في نفس هذا الشاعر الثائر.

٥- ومن خلال العرض السابق لسيرة شاعرنا تبين لنا أنه لم يعدل من مواقفه ولم يستطع أن يتقيد بحدود المستكبرين أو أن يمتثل لأوامرهم ونواهيهم. فهو كما يبدو قد طبع على الخير وكلف به وانصرف إليه وقد وجد في الشعر متنفساً له يعبر فيه عن مكنوناته القلبية، وسخطه على قيم الظالمين.

الملخص:

قلما نجد شاعراً أو كاتباً شيعياً دافع عن النبيّ ﷺ وآل بيته الأبرار إلا ونجد أنواع التهم تخيم عليه. هذا المقال يدرس تناقضات المؤرخين من خلال تعريفهم لدِعْبِل الخُزاعِي (الشهيد ٢٤٦سنة هـ.ق) فيحاول الاجابة عن الأسئلة التالية:

١- هل يمكننا الاعتماد على أقوال بعض المؤرخين للتعريف بشخصية دعبل الخزاعي رغم تناقضاتهم؟

٢- هل للتعصب دور في آرائهم وأقوالهم؟

٣- هل هناك أقوال أخرى وردت في كتبهم تنفي مزاعمهم فيما زعموا؟

يحاول الباحث عرض التُّهم التي أُلصِقَت بشاعرنا ثم الإجابة عنها مستخدما نفس الكلمات الواردة في أقوال هؤلاء المؤرخين ويظلُّ القصد من ذلك هو إلقاء المزيد من الضوء على تلك التهم والمقارنة بين أقوالهم ليتبين للقارىء نياتهم حتى يصل إلى الاستنتاج المنطقي.

وللبحث فرضيات نحاول إثباتها وهي:

١- أقوال وآراء هؤلاء المؤرخين للتعريف بشخصية شاعرنا نابع عن حقد دفين.

٢- إنهم اضطرّوا لخلق التُهم لإبعاد الناس عن الشيعة وشعرائهم.

٣- توجيه هذه التهم لم يكن إلا بأمر من سلاطين الجور.

الكلمات الرئيسية: دعبل الخزاعي، المؤرخون، الشاعر الملتزم، آل بيت النبي ﷺ.

Abstract

Rarely find a poet or a writer Shiite defended the Prophet (Allah bless him and his family), and Household of the Prophet But we find all kinds of accusations against them.

This article explores the contradictions historians associated with the poets, Shiite. We chose Debl Al-Khuzaie (Martyr 246 AH) for example. The article answers the following questions:

1- Can we rely on the sayings with these contradictions?

2- Does the role of intolerance in their opinions and their words?

3- Is there any other statements contained in saying rejects their claims in what they said?

Researcher is trying to display the charges glued debl Al-Khuzaie Then answer these questions Using the same words contained in the statements of these historians It remains the intention is to shed more light on those charges And comparison between their words To show the continental intentions to reach the logical conclusion.

Research hypotheses:

1- the words and views of those historians stems from hatred of the Shiites.

2- to keep their people from the Shiite and Shiite poets were forced to create a scandal.

3- These charges by order of the tyrants.

Key Word: Debl Al-Khuzaie, Historians, Shiite poet, the family of the Prophet (peace and blessings be upon him), the charges, the narrators.

قائمة المصادر والمراجع

- ابن الأبار الأندلسي (ت٦٥٨هـ)، الحلة السيراء، ج١، تحقيق حسين مؤنس، ط:١، القاهرة ١٩٦٣م.

- ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، ط٢، بيروت، ١٩٦١م.

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء الزمان (٦٠٨ - ٦٨١هـ) تحقيق د. إحسان عباس، ج ٢، دار الثقافة، ١٩٦٨م.

- ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد، العقد الفريد، ج ٢، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٩٩٠م.

- ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (٤٩٩-٥٧١هـ)، تاريخ دمشق،، ثمانين مجلداً، دار الفكر، بيروت.

- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني؛ ج٢٠، الشرح والهوامش د. عبدالله علي مهنا، دارالفكر، بيروت، ١٤٠٧هـ.ق،١٩٨٦م.

- الحموي، ياقوت، معجم الادباء،ج٤، مصر، مطبعة المأمون،١٣٥٥ - ١٣٥٧هـ.ق.

- الخطيب البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي (ت٤٦٣) تاريخ بغداد أو مدينة السلام، ط:١، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ج ٨، دارالكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ.

- الزّركلي الدمشقي، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الأعلام، ج٢، ط: ١٠، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٢م.

- القيرواني أبو إسحاق ابراهيم بن علي الحصري، زَهرُ الآداب وثَمَرُ الألباب، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، ج ١، المطبعة الرحمانية، مصر.

- الكيلاني، محمّد السيّد، أثر التشيّع في الأدب العربيّ، ط:١، القاهرة، لجنة النشر للجامعيّين.

- المرزبانيّ أخبار شعراء الشيعة، ط: ٢، شركة الكتبي، بيروت، ١٤١٣ هـ.

- مختار الأغاني، ابن منظور المصري (٧١١هـ) تحقيق الأبياري، ج ١، القاهرة، ١٩٦٥-١٩٦٦م.

- الأبشيهي، بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد(٨٥٠هـ)، المستطرف في كل فن مستظرف، ج٢، القاهره : مطبعة بولاق، ١٢٦٨-١٢٧٢هـ.

المجلات:

- مجلة التراث العربي، رقم٣٤، كانون الثاني ١٩٨٩م، مقال بعنوان: مواطِن الخَلل والاضِطراب في كتاب الأغاني، لمحمد خير شيخ موسى.